تجلّي الربّ

أنتوني (بلوم) متروبوليت سوروج

عيد التجلّي هو عيدٌ شديد الأهمّيّة لدى المسيحيّين الأرثوذكسيّين، فهُم يفسّرونه على أنّه يشير إلى مصيرنا النهائيّ نحن جميعًا. إنّ النور الذي أشرقَ به يسوع على جبل ثابور هو نورُ الله غير المخلوق عينه، وهو علامةٌ على التمجُّد أو التألُّه. في نهاية الزمن، لن يتألّه الصالحون وحدهم، بل سيتحرّر الكون المادّيّ بأكمله من الفساد والفناء.

هنا، تُكشَف لنا، بصورةٍ غير مباشرة، كلُّ عظمة الإنسان وأهمّيّته، بل وأيضًا عظمة وأهمّيّة العالم المادّيّ نفسه وقدرته التي لا تُوصف، لا تلك الأرضيّة والزائلة فحسب، بل الأبديّة والإلهيّة أيضًا...

وإذا قبِلنا بانتباهٍ وجدّيّة ما يُكشَفُ لنا هنا، يجب أن نُغيّر على قدر الإمكان، وبعمقٍ، موقفنا تجاه كلّ شيءٍ مرئيّ، تجاه كلّ شيءٍ ملموس؛ ليس فقط تجاه الإنسانيّة والجسد البشريّ، بل تجاه كلّ ما يحيط به ممّا هو محسوسٌ وملموسٌ ومرئيّ... كلّ شيءٍ مدعوٌّ ليصبح مسكنًا لنعمة الربّ؛ كلّ شيءٍ مدعوٌّ، في وقتٍ ما، في نهاية الزمن، لأن يُجتذَبَ إلى ذلك المجد ولأن يُشرق بذلك المجد.

وقد أُعطِيَ لنا نحن البشر أن نعرف ذلك؛ لم يُعطَ لنا أن نعرفه فحسب، بل أن نكون شركاء مع الله في إنارة تلك الخليقة التي خلقَها الربّ... نحن نُبارك الثِّمار، والمياه، والحبوب، والخبز؛ إنّنا نُبارك الخبز والخمر لتحويلهما إلى جسد الربّ ودمه؛ إذًا، مصدر معجزتَي التجلّي والظهور الإلهيّ يقع ضمن حدود الكنيسة. من خلال الإيمان البشريّ، تُفرَزُ مادَّة هذا العالم، المادّة الّتي بسبب عدم إيمان الإنسان وخداعه، سُلِّمَت للفساد والموت والدمار، هذه تُفرَزُ بمعجزة التجلّي والظهور الإلهيّ. من خلال إيماننا، تُفرَزُ من هذا الفساد والموت، وتُسلَّم إلى الله نفسه، ويقبَلُها الله، وفي الله تُصبح خليقةً جديدة...

دعونا نفكّر في هذا؛ نحن لسنا مدعوّين إلى استعباد الطبيعة، بل إلى تحريرها من سجن الفساد والموت والخطيئة، إلى تحريرها وإعادتها إلى الانسجام مع ملكوت الله. لذلك، فلنبدأ في التعامل بعُمقٍ واحترامٍ مع

كلّ مادّةٍ مخلوقة، مع كلّ العالم المرئيّ. ولنكُنْ في العالم عاملين مع المسيح، لكي يُحقِّقَ العالمُ مجدَه وتدخل الخليقة كلُّها، من خلالنا، إلى فرح الربّ.

نقلتها إلى العربيّة أسرة التراث الأرثوذكسيّ

Source: Metropolitan Anthony (Bloom) of Sourozh (1973). "The Transfiguration of the Lord", in *OrthoChristian*. Link.

خطأ عقيدة الحبل بلا دنس

القدّيس يوحنا مكسيموفيتش

"غَيْرَةٌ لله ولكن ليس حَسَبَ المَعرفة" (رومية 10: 2)

بعد أن وُبِّخَ أولئك الذين انتقدوا الحياة النقيَّة التي عاشَتْها العذراء الفائقة القداسة، وكذلك أولئك الذين أنكَروا بتوليّتها الدائمة، وأيضًا الذين أنكَروا كرامتها كوالدةٍ للإله، والذين احتقروا أيقوناتها، وعندما أضاء مجدُ والدة الإله الكونَ كلَّه، ظهرَ تعليمٌ يبدو أنَّه يُمجِّد العذراء مريم ويُعَلِّيها، لكنّه في الواقع يُنكِر كلّ فضائلها.

يُسمّى هذا التعليم "الحبل بلا دنس بالعذراء مريم"، وقد قبِلَه أتباعُ الكرسيّ البابويّ في روما. يقول هذا التعليم إنّ "العذراء مريم الكلّيّة الطوبى، في اللّحظة الأولى للحبل بها، وبفضل نعمة الله الكلّيّ القدرة وامتيازٍ خاصٍّ بها، ومن أجل أن تكون مستحقّةً مستقبَلًا ليسوع المسيح مخلّص الجنس البشريّ، حُفِظَت من كلِّ وصمة الخطيئة الأصليّة" (مرسوم البابا بيوس التاسع حول العقيدة الجديدة). بعبارةٍ أخرى، حُفِظَت والدة الإله في لحظة الحبل بها من الخطيئة الأصليّة؛ وبنعمة الله، وُضِعَت في حالةٍ يستحيل عليها فيها أن ترتكب خطايا شخصيّة.

لم يكن المسيحيّون قد سمعوا بهذا الأمر قبل القرن التاسع، حين عبّرَ للمرّة الأولى باشاسيوس رادْبِرتوس، رئيس دير كورڤي، عن الرأي القائل إنّ العذراء القدّيسة حُبِلَ بها بلا خطيئةٍ أصليّة. وابتداءً من القرن الثاني عشر، بدأت تنتشر هذه الفكرة بين الإكليروس والرعيّة في الكنيسة الغربيّة، التي كانت قد انفصلَتْ عن الكنيسة الجامعة ففقدَتْ نعمة الروح القدس.

مع ذلك، لم يتّفق جميع أعضاء الكنيسة اللاتينيّة مع التعليم الجديد. كان ثمّة اختلافٌ بين أشهر اللاهوتيّين الغربيّين، أي بين أعمدة الكنيسة اللاتينيّة، إذا جاز التعبير. فقد انتقد توما الأكوينيّ وبرنارد دي كليرڤو (Bernard de Clairvaux) بشدّةٍ هذا التعليم، بينما دافع عنه دونز سكوتوس (Duns Scotus). وانتقل هذا الانقسام من المعلّمين إلى تلاميذهم: فقد بشّرَ الرهبان الدومينيكان اللّاتين، بعد معلّمهم توما الأكوينيّ، ضدّ

تعليم الحبل بلا دنس، بينما سعى الفرانسيسكان أتباع دونز سكوتوس، إلى غرسِه في كلّ مكان. استمرّت المعركة بين هذَين التيّارَين قرونًا عدّة. وضمَّ الجانبان أشخاصًا كانوا يُعتبَرون من أعظم المراجع الكاثوليكيّة.

لم يساعد أحدٌ في حسم المسألة، لأنّ أشخاصًا عدّة أعلنوا أنّهم تلقّوا رؤيا من العلاء بهذا الشأن. فقد كتبت الراهبة بريجيت [السويديّة]، المشهورة في القرن الرابع عشر بين الكاثوليك، عن ظهوراتِ والدة الإله لها، والتي أخبرتها بنفسها أنّه حُبِلَ بها بلا دنس، بلا خطيئةٍ أصليّة. غير أنّ معاصِرتها كاترين من سيينا التي كانت ناسكةً أشهر، أكّدت أنّ العذراء القدّيسة كانت، عند الحبل بها، مشمولةً بالخطيئة الأصليّة، وقد تلقَّتْ [كاترين] رؤيا بهذا الشأن من المسيح نفسه[1].

هكذا، ولفترةٍ طويلة، لم تستطِع الرعيّة اللاتينيّة أن تُميِّز الحقيقة، لا على أساس الكتابات اللاهوتيّة، ولا على أساس الظهورات المتناقضة. وظلّ الباباوات الكاثوليك حتّى سيكستوس الرابع (نهاية القرن 15م) بعيدين عن هذه الخلافات. هذا البابا هو الذي وافق في العام 1475 على خدمةٍ جرى فيها التعبير بوضوحٍ عن تعليم الحبل بلا دنس؛ وبعد سنواتٍ عدّة، حظّرَ إدانة أولئك الذين آمنوا بالحبل بلا دنس. مع ذلك، لم يكن سيكستوس الرابع قد قرّر بعدُ أن يؤكّد أنَّ هذا هو التعليم الثابت للكنيسة؛ ولذلك، مع أنّه حظّرَ إدانة أولئك الذين آمنوا بالحبل بلا دنس، فإنّه لم يدِنْ أولئك الذين لم يؤمنوا به.

في غضون ذلك، اكتسبَ تعليمُ الحبل بلا دنس المزيدَ من الأنصار بين أعضاء الكنيسة الكاثوليكيّة. وكان السبب في ذلك هو أنّه بدا أكثرَ تقوىً وإرضاءً لوالدة الإله أن تُمنَح أكبر قدرٍ ممكنٍ من المجد. إنّ الأمر الذي جعلَ هذا التعليمَ، الذي عبّرَ عنه باشاسيوس رادْبرتوس في القرن التاسع، يصيرُ الاعتقادَ العامّ للكنيسة اللاتينيّة في القرن التاسع عشر، هو سعي الناس إلى تمجيد الشفيعة السماويّة من جهةٍ، وانحراف اللاهوتيّين الغربيّين إلى تخميناتٍ مجرّدةٍ أنتجتْ حقيقةً ظاهريّةً فقط (السكولاستيكيّة) من جهةٍ أخرى؛ أضِفْ إليهما مناصرة الباباوات بعد سيكستوس الرابع لهذا الرأي. لم يبقَ سوى إعلان ذلك على نحوٍ قاطعٍ كتعليمٍ للكنيسة، وهو ما فعله البابا بيوس التاسع خلال خدمةٍ احتفاليّةٍ في 8 كانون الأوّل 1854، حين أعلن أنّ الحبَل بلا دنس بالعذراء الفائقة القداسة هو عقيدةٌ في الكنيسة الكاثوليكيّة. وبذلك، أضافت الكنيسة الكاثوليكيّة انحرافًا آخر عن

[1] انظر كتاب "الاختلافات في التعليم حول والدة الإله الفائقة القداسة بين كنيستَي الشرق والغرب" للأرشمندريت أ. ليبيديف.

التعليم الذي كانت تعترف به عندما كانت عضوًا في الكنيسة الرسوليّة الجامعة، انحرافًا عن الإيمان الذي حافظَت عليه الكنيسة الأرثوذكسّية حتّى الآن من دون تغييرٍ أو تبديل. أرضى إعلانُ العقيدة الجديدة الجموعَ الكبيرة المنتمية إلى الكنيسة الكاثوليكيّة، التي اعتقدت ببساطةِ قلبٍ أنّ إعلان التعليم الجديد في الكنيسة سيُقدّم مجدًا أكبر لوالدة الإله، وأنّهم كانوا يقدّمونه لها بمنزلة هديّة. وأرضى أيضًا غرور اللاهوتيّين الغربيّين الذين دافعوا عنه وعمِلوا عليه. ولكنّ الأهمّ من ذلك كلّه، هو أنّ إعلان العقيدة الجديدة كان مفيدًا للبابا الكاثوليكيّ نفسه، لأنّه، بإعلانه العقيدة الجديدة بسُلطته الخاصّة، ولو بعد استماعٍ إلى آراء أساقفة الكنيسة، خصَّ نفسه علنًا بالحقّ في تغيير تعليم الكنيسة الكاثوليكيّة، ووَضَعَ صوته فوق شهادة الكتاب المقدّس والتقليد. وكان الاستنتاج المباشر من هذا هو أنّ الباباوات معصومون في مسائل الإيمان، الأمر الذي أعلنه هذا البابا بيوس التاسع نفسه عقيدةً للكنيسة الكاثوليكيّة في العام 1870.

إذًا، تغيّرَ تعليمُ الكنيسة الغربيّة بعد خروجها من الشركة مع الكنيسة الحقيقيّة. وأدخلت تدريجيًّا تعاليم أحدث، ظنًّا منها أنّها تُمجِّدُ الحقّ أكثر، ولكنّها كانت في الواقع تُشوّهه. بينما تعترف الكنيسة الأرثوذكسيّة بتواضعٍ بما تلقّته من المسيح والرسل، تجرؤ الكنيسة الكاثوليكيّة على الإضافة إليه، أحيانًا من غيرةٍ ليست "حسب المعرفة" (راجع رو 10: 2)، وأحيانًا بالانحراف إلى الخرافات وإلى تناقضات "العلم الكاذب" (1 تي 6: 20). ليس الأمر خلاف ذلك. إنّ الوعد القائل إنّ "أبواب الجحيم لن تقوى على الكنيسة" (مت 16: 18) موعودٌ به فقط للكنيسة الحقيقيّة الجامعة؛ أمّا الذين سقطوا منها فيتحقّق فيهم الكلام القائل: "كما أنّ الغصن لا يقدر أن يأتي بثمرٍ من ذاته إن لم يثبتْ في الكرمة، كذلك أنتم أيضًا إن لم تثبُتوا فيّ" (يو 15: 4).

صحيحٌ أنّ تعريف العقيدة الجديدة نفسه يقول إنّه لا يجري تأسيس تعليمٍ جديد، بل مجرّد إعلان ما كان موجودًا دائمًا في الكنيسة وما تمسّكَ به العديد من الآباء القدّيسين، ويستشهد بمقتطفاتٍ من كتاباتهم، لكنّ المراجع المذكورة كافّةً تتحدّث فقط عن القداسة السامية للعذراء مريم، وعن نقاوتها، وتمنحُها أسماء مختلفةً تُحدّد نقاوتها وقوّتها الروحيّة؛ ولا يوجد في أيّ مكانٍ أيّة كلمةٍ عن طهارة الحبَل بها. وفي الوقت عينه، يقول هؤلاء الآباء القدّيسون أنفسهم في أماكن أخرى إنّ يسوع المسيح وحده هو الطاهر تمامًا من كلّ خطيئة، بينما جميع البشر المولودين من آدم قد حملوا جسدًا خاضعًا لناموس الخطيئة.

لا أحد من الآباء القدّيسين القدماء يقول إنّ الله طهَّرَ العذراء مريم بطريقةٍ مُعجزةٍ فيما كانت لا تزال في الرحم؛ ويشير كثيرون مباشرةً إلى أنّ العذراء مريم حاربت الخطيئة مثل جميع البشر، لكنّها انتصرت على التجارب وخلّصَها ابنُها الإلهيّ.

يقول مفسِّرو المذهب اللاتينيّ، هم أيضًا، إنّ العذراء مريم قد خلّصَها المسيح، لكنّهم يفهمون ذلك بمعنى أنّ مريم حُفِظَتْ من وصمة الخطيئة الأصليّة لكي تكون مستحقّةً المسيح مستقبَلًا (مرسوم عقيدة الحبل بلا دنس). وفقًا لتعليمهم، تلقّت العذراء مريم مسبقًا، إذا جاز التعبير، الهِبة التي جلبها المسيحُ للبشر بآلامه وموته على الصليب. علاوةً على ذلك، عند حديثهم عن عذابات والدة الإله التي كابدَتْها عند صليب ابنها الحبيب، والأحزان الأخرى التي ملأت حياتها، يعتبرون هذه الآلام إضافةً إلى آلام المسيح، ويعتبرون مريم شريكةً له في فدائنا.

وفقًا لتفسير اللاهوتيّين اللّاتين، "مريم هي شريكةٌ مع فادينا باعتبارها شريكةً في الفداء (Co-Redemptress)"[2]. "هي ساعدت المسيحَ في عمل الفداء بطريقةٍ معيّنة" (تعاليم الدكتور فايمار). يكتب الدكتور لينتز (Lentz) قائلًا: "لم تتحمّل والدة الإله عبءَ استشهادها بشجاعةٍ فحسب، بل بفرحٍ أيضًا، وإن كان بقلبٍ مكسور" (ماريولوجيا الدكتور لينتز). لهذا السبب، هي "مُكمِّلٌ للثالوث القدّوس"، و"كما أنّ ابنها هو الوحيد الذي اختاره الله وسيطًا بين جلاله الذي أُسيءَ إليه والبشر الخاطئين، كذلك تمامًا، العذراء المباركة هي الوسيطة الرئيسة التي وضعَها بين ابنه وبيننا". "في ثلاثة جوانب -كابنة، وأمٍّ، وزوجةٍ لله- رُفِعَت العذراء القدّيسة إلى مساواةٍ معيّنةٍ مع الآب، وإلى تفوّقٍ معيّنٍ على الابن، وإلى قُربٍ معيّنٍ من الروح القدس" ("الحبل بلا دنس"، مالو أسقف بروج).

إذًا، وفقًا لتعليم ممثّلي اللاهوت اللاتينيّ، وُضِعَت العذراء مريم في عمل الفداء جنبًا إلى جنبٍ مع المسيح نفسه، ورُفِعَت إلى مساواةٍ مع الله. لا يمكن للمرء أن يذهب أبعد من ذلك. ومع أنّ هذا التعليم لم يُصَغْ بعد بصورةٍ نهائيّةٍ كعقيدةٍ للكنيسة الكاثوليكيّة، فإنّ البابا بيوس التاسع، الذي خطا الخطوة الأولى في هذا

[2] انظر ليبيديف، المرجع نفسه، ص 273.

الاتّجاه، قد أظهرَ الاتّجاه لتطويرٍ أكبر للتعليم المعترَف به عمومًا في كنيسته، وأكّدَ على نحوٍ غير مباشر التعليمَ المذكور أعلاه عن العذراء مريم.

إذ تسعى الكنيسة الكاثوليكيَّة لتمجيد العذراء الفائقة القداسة، هي تسير في طريق تأليهها الكامل. وإذا كانت سلطاتُها تُسمّي مريم حتّى الآن مُكمِّلةً للثالوث القدّوس، يتوقّع المرء أن تُبجَّلَ العذراء قريبًا مثل الله. دخلَت هذا المسارَ نفسه مجموعةٌ من المفكّرين الذين ينتمون في الوقت الحاضر إلى الكنيسة الأرثوذكسيّة، لكنّهم يبنون نظامًا لاهوتيًّا جديدًا أساسُه التعليم الفلسفيّ عن الحكمة باعتبارها قوّةً خاصّةً تربط الألوهةَ بالخليقة. كذلك، يُطوّرون التعليم المتعلّق بكرامة والدة الإله، رغبةً منهم في أن يروا فيها جوهرًا هو نوعًا من نقطة وسطٍ بين الله والإنسان. في بعض المسائل هم أكثر اعتدالًا من اللاهوتيّين اللّاتين، ولكن في مسائل أخرى -إن سمحتُم لي- لقد تجاوزوهم بالفعل. وبينما يُنكِرون تعليم الحبل بلا دنس والتحرُّر من الخطيئة الأصليّة، فإنّهم ما زالوا يُعلِّمون عن تحرُّر العذراء الكامل من أيّة خطايا شخصيّة، ويرون فيها وسيطًا بين البشر والله، مثل المسيح: في شخص المسيح، ظهرَ على الأرض الشخصُ الثاني من الثالوث القدّوس، الكلمة الأزليّ، ابن الله؛ بينما تجلّى الروح القدس من خلال العذراء مريم.

على حدّ تعبير أحد ممثّلي هذا الاتّجاه، عندما حلَّ الروح القدس على العذراء مريم، اكتسبَتْ "حياةً ثنائيّة، بشريّة وإلهيّة؛ أي تألّهت تمامًا، لأنّه تجلّى في كيانها الأقنوميّ استعلانُ الروح القدس، استعلانه الحيّ والخالق"[3] . "هي تجلٍّ مثاليّ للأقنوم الثالث"[4] ، "مخلوقةٌ، لكنّها أيضًا لم تعُدْ مخلوقة"[5]. يُلاحَظُ هذا التطلُّع نحو تأليه والدة الإله في الغرب بالدرجة الأولى، ويُقابله رفضٌ كبيرٌ من قبل طوائف بروتستانتيّةٍ مختلفة، إلى جانب الفروع الرئيسيّة للبروتستانتيّة واللوثريّة والكالفينيّة، لتبجيل والدة الإله واستدعائها في الصلاة.

ولكن، يمكننا القول بكلمات القدّيس إبيفانيوس القبرصيّ: "ثمّة ضررٌ متساوٍ في هاتين البدعتين كلتيهما، أي عندما يُقلّل الناس من شأن العذراء، وأيضًا عندما يُمجّدونها بما يتجاوز اللّائق"[6]. يَدينُ هذا الأب القدّيس

[3] الأرشمندريت سيرجي بولغاكوف، "العلّيقة غير المحترقة"، 1927، ص 154.

[4] المرجع نفسه، ص 175.

[5] ص 191.

[6] كتاب البناريون، "ضدّ المريميّين".

أولئك الذين يقدّمون لها عبادةً شبه إلهيّة، فيقول: "فلْتُكرَّمْ مريم، وأمَّا العبادة فلْتُقدَّم للربّ"[7]. ويضيف: "على الرَّغم من أنَّ مريم هي إناءٌ مُختار، فقد كانت امرأةً بالطبيعة ولا تختلف على الإطلاق عن الآخرين. ومع أنَّ تاريخ مريم والتقليد يرويان أنَّه قيل لوالدها يواكيم في الصحراء: "لقد حبلَت زوجتك"، فهذا لم يجرِ إلّا من خلال اتّحادٍ زوجيّ، وليس من دون بذرة رجل"[8]. "لا ينبغي تبجيل القدّيسين فوق ما هو لائق، بل ينبغي تبجيل سيّدهم. مريم ليست الله، ولم تتلقَّ جسدًا من السماء، بل من اجتماعِ رجلٍ وامرأة؛ ووفقًا للوعد، مثل إسحق، أُعِدَّتْ للمشاركة في التدبير الإلهيّ. ولكن، من ناحيةٍ أخرى، لا يجرؤَنَّ أحدٌ بغباوةٍ على الإساءة إلى العذراء القدّيسة"[9].

تُمجِّدُ الكنيسة الأرثوذكسيَّة والدة الإله وتُعلّيها في تسابيحها، لكنَّها لا تجرؤ على أن تنسِبَ إليها ما لم يُنقَلْ عنها في الكتاب المقدَّس أو التقليد. "الحقيقة لا تبالِغ، وفي الوقت عينه، لا تُقلِّل من الشأن. إنّها تمنح كلَّ شيءٍ مقياسًا مناسبًا ومكانًا مناسبًا" (الأسقف إغناطيوس بريانشنينوف)[10]. لقد مجَّدَ آباء الكنيسة طهارة العذراء مريم واحتمالها الرجوليّ للأحزان في حياتها الأرضيَّة، لكنّهم، من ناحيةٍ أخرى، رفضوا أن تكون وسيطةً بين الله والبشر بمعنى الفداء المشترَك لجنس البشر. وقد تحدَّث القدّيس أمبروسيوس أسقف ميلان عن استعدادها للموت مع ابنها والتألُّم معه من أجل خلاص الجميع، فقال هذا الأب المشهور في الكنيسة الغربيّة: "ولكنّ آلام المسيح لم تحتَجْ إلى أيَّة مساعدة، كما سبق فقال الربُّ نفسه منذ زمنٍ طويل [في نبوءة إشعياء]: "نظرتُ فلم يكن مُعينٌ، وتحيَّرتُ إذ لم يكن عاضدٌ. فخلَّصَتْ لي ذراعي" (إشعياء 63: 5)[11].

يُعلِّمُ هذا الأب القدِّيس نفسُه بخُصوص شموليَّة الخطيئة الأصليَّة، والتي يُعتبَرُ المسيحُ وحده استثناءً منها. يقول: "من بين جميع المولودين من النساء، لا يوجد إنسانٌ مقدَّسٌ تمامًا، باستثناء الربّ يسوع المسيح الذي

[7] المصدر عينه.

[8] المصدر عينه.

[9] القدّيس إبيفانيوس، "ضدّ الأنتيديكوماريون" [مجموعة كانت تعارض عذريّة مريم بعد الولادة وتقول إنها أنجبت أولادًا آخرين من يوسف].

[10] أعلنت قداسته في العام 1988 أي بعد كتابة هذه الدراسة (المترجم).

[11] القدّيس أمبروسيوس، "في تربية العذراء ودوام بتوليّة مريم القدّيسة"، الفصل 7.

لم يختبر دنَسًا أرضيًّا، بطريقةٍ جديدةٍ خاصّةٍ هي ميلادٌ طاهر".[12] ويضيف: "الله وحده بلا خطيئة. كلُّ مَن وُلِدَ بالطريقة المعتادة من امرأةٍ ورجل، أي من اتِّحادٍ جسديّ، يصير مُذنِبًا بارتكابه الخطيئة. وبالتالي، فإنَّ مَن ليست لديه خطيئةٌ لم يُحبَلْ به بهذه الطريقة"[13]. ويقول أيضًا: "رجلٌ واحدٌ فقط، الوسيط بين الله والإنسان، هو خالٍ من قيود الميلاد المُفضي إلى الخطيئة، لأنّه وُلِدَ من عذراء، ولأنّه في ولادته لم يختبرْ لمسة الخطيئة".[14]

كتبَ المغبوط أوغسطين، وهو معلِّمٌ آخر ذائع الصيت في الكنيسة ومُكرَّمٌ تكريمًا خاصًّا في الغرب، قائلًا: "أمَّا بالنسبة إلى الرجال الآخرين، وباستثناء مَن هو حجر الزاوية، فلا أرى لهم أيَّة وسيلةٍ أخرى ليُصبحوا هياكلَ لله ومساكنَ له بخلاف إعادة الولادة الروحيَّة، التي يجب أن يسبقها تمامًا الميلادُ الجسديّ. لذا، حتَّى لو فكَّرْنا في الأطفال الذين في رحم الأمّ، وفي كلام الإنجيليّ المقدَّس القائل عن يوحنَّا المعمدان إنَّه ارتكضَ من الفرح في رحم أمه (الأمر الذي حدثَ بفِعل الروح القدس)، وفي كلام الربّ نفسِه الموجَّه إلى إرميا: "قبلَما صوَّرتُكَ في البطن عرفتُكَ، وقبلما خرجتَ من الرَّحم قدَّستُكَ" (إرميا 1: 5) – لو أعطَتْنا هذه كلُّها أساسًا للاعتقاد بأنَّ الأطفال يمكنهم أن يتقدَّسوا في هذه الحالة بشكلٍ ما، فإنَّه لا يمكن الشكّ في أيّة حالٍ بأنَّ التقديس الذي به نصبح جميعنا هيكلًا لله، معًا وكلّ واحدٍ على حِدة، ممكنٌ فقط لأولئك الذين يولَدون من جديد، وإعادة الولادة تفترض دائمًا الميلاد. فقط أولئك الذين وُلِدوا يمكنهم أن يتَّحدوا بالمسيح، وأن يتَّحدوا بهذا الجسد الإلهيّ الذي يجعل كنيسته الهيكلَ الحيّ لجلال الله".[15]

يشهد كلام معلّمي الكنيسة القدماء المذكور أعلاه أنَّه في الغرب نفسه، رُفِضَ سابقًا التعليم المنتشر هناك الآن. بعد سقوط الكنيسة الغربيَّة، كتب "برنارد" الذي يُعترَفُ به في الغرب كمرجعيَّةٍ عظيمة، فقال: "أنا خائفٌ الآن، أرى أنَّ بعضكم يرغب في تغيير حالة المسائل المهمَّة، وإدخال عيدٍ جديدٍ ليس معروفًا لدى الكنيسة، ولا يوافق عليه العقل، ولا يُبرِّره التقليد القديم. هل نحن حقًّا أكثر تعلُّمًا وتقوى من آبائنا؟ ستقولون:

[12] القدّيس أمبروسيوس، تعليق على لوقا، الفصل 2.

[13] القدّيس أمبروسيوس، عن أوغسطين، "في الزواج والشهوة".

[14] القدّيس أمبروسيوس، المرجع عينه، الكتاب 2: "ضدّ يوليانوس".

[15] المغبوط أوغسطين، الرسالة 187.

"يجب تمجيد والدة الإله بأكبر قدرٍ ممكن". هذا صحيح، لكنّ التمجيد الممنوح لملكة السماء يتطلّب تمييزًا. لا تحتاج هذه العذراء الملِكة إلى تمجيداتٍ كاذبة، فهي تمتلك تيجانَ مجدٍ حقيقيّةً وسِماتَ الكرامة. مجِّدوا طهارة جسدها وقداسة حياتها. تعجَّبوا من وفرة العطايا الممنوحة لهذه العذراء؛ بَجِّلوا ابنها الإلهيّ؛ أَعلوا مَن حَبِلَتْ من دون أن تعرف شهوةً وأنجبَتْ من دون أن تعرف ألمًا. ولكن ما الذي نحتاج إلى أن نُضيفه إلى هذه الكرامات؟ يقول الناس إنَّه يجب تبجيل الحبَل الذي سبقَ الميلادَ المجيد؛ لأنَّه لو لم يسبق الحبَل، لما كان الميلاد مجيدًا. ولكن، ماذا سيقول المرء إذا طالبَ أيُّ شخص، للسبب عينه، بالنوع عينه من التبجيل لوالد مريم القدّيسة ووالدتها؟ وقد يطالب المرء بالأمر عينه لأجدادها وأجداد أجدادها، إلى ما لا نهاية. علاوةً على ذلك، كيف لا تكون خطيئةٌ في المكان الذي كانت فيه شهوة؟ لا تقُلْ على الإطلاق إنَّ العذراء القدّيسة حُبِلَ بها من الروح القدس وليس من رجل. أقولُ على نحوٍ قاطعٍ إنَّ الروح القدس حلَّ عليها، ولم يأتِ معها".

"أقول إنَّ العذراء مريم لم يكن من الممكن أن تتقدَّس قبل الحبَل بها، لأنَّها لم تكن موجودة. فإذا لم تتمكّن من التقدُّس في لحظة الحبَل بها بسبب الخطيئة التي لا تنفصلُ عن الحبَل، يبقى أن نؤمن بأنَّها تقدَّست بعد الحبَل بها في رحم أمّها. هذا التقدُّس، إذا كان يُبيدُ الخطيئة، فإنَّه يجعل ولادتها هي المقدَّسة لا الحبل بها. لا أحد قد مُنِحَ الحقّ في أن يُحبَلَ به في قداسة؛ فقط الربّ المسيح حُبِلَ به من الروح القدس، وهو وحده مقدَّسٌ منذ الحبل به. باستثنائه، يجب أن يُشارَ إلى جميع نسل آدم بما يقوله واحدٌ من هذا النسل عن نفسه [النبيّ داود]، بدافع التواضع واعترافًا بالحقيقة: "هأنذا بالآثام قد حُبِلَ بي" (مزمور 50: 7). كيف يمكن للمرء أن يطلب أن يكون هذا الحبَلُ مقدَّسًا، بينما لم يكن من عمل الروح القدس، وجاء أيضًا من شهوة؟ بالطبع، ترفض العذراء القدّيسة ذلك المجد الذي، على ما يبدو، يُمجّد الخطيئة. لا يمكنها بأيّة حالٍ من الأحوال تبرير بدعةٍ ابتُكِرَت خلافًا لتعليم الكنيسة، بدعةٍ هي أمٌّ للتهوّر، وأختٌ للكفر، وابنةٌ للاستخفاف"[16]. يكشف الكلام المذكور أعلاه بوضوحٍ بدعة العقيدة الجديدة التي وضعَتْها الكنيسة الكاثوليكيّة ولامعقوليّة هذه العقيدة.

[16] برنارد، الرسالة 174؛ مقتبسة من ليبيديف مع أقوال المغبوط أوغسطين.

إنَّ التعليم عن التنزُّه الكامل لوالدة الإله عن الخطيئة (1) لا يتوافق مع الكتاب المقدَّس، حيث يُذكَرُ مرارًا أنّ المنزّه عن الخطيئة هو "الوسيط الواحد بين الله والناس، الإنسان يسوع المسيح" (1تي 2: 5)؛ "الذي ليس فيه خطيئة" (1يو 3: 5)؛ "الذي لم يفعلْ خطيئة، ولا يوجد في فمِه مكرٌ" (1بط 2: 22)؛ "المجرَّب في كلِّ شيءٍ مثلنا بلا خطيئة" (عب 4: 15)؛ "جعل الذي لم يعرف خطيئة، خطيئةً لأجلنا" (2كو 5: 21). أمّا عن بقيّة البشر فيُقال: "مَن يُخرِجُ الطاهرَ من النجِس؟ لا أحد!" (أيوب 14: 4). "ولكنّ الله بيَّنَ محبّته لنا، لأنّه ونحن بعد خطأةٌ ماتَ المسيح لأجلنا... لأنَّه إنْ كنّا ونحن أعداءٌ قد صولِحنا مع الله بمَوت ابنه، فبالأولى كثيرًا ونحن مُصالَحون نخلُص بحياته!" (رو 5: 8-10).

(2) يتعارض هذا التعليم أيضًا مع التقليد المقدَّس الموجود في العديد من الكتابات الآبائيَّة، حيث تُذكَرُ القداسة السامية للعذراء مريم منذ ولادتها، وكذلك تطهيرها بالروح القدس عند حبلها بالمسيح، ولكن ليس عند الحبل بها هي نفسها من قبل حنّة. "ليس أحدٌ بريئًا من الدنَس أمامك، ولو كانت حياته يومًا واحدًا، إلَّا أنتَ وحدكَ، يا يسوع المسيح ربَّنا الذي ظهرتَ على الأرض بلا خطيئة. وبكَ نرجو جميعًا أن ننالَ الرحمة وغفران الخطايا" (القدّيس باسيليوس الكبير، الإفشين السادس من صلاة السجدة مساء عيد العنصرة). "ولكن عندما جاء المسيح من خلال أمٍّ طاهرة، عذراء، غير متزوّجة، خائفةٍ لله، غير مدنَّسة، من دون زواجٍ ومن دون أب، وبقدر ما كان مناسبًا له أن يولد، طهَّرَ الطبيعة الأنثويَّة، وأبطلَ حوَّاءَ المريرة، وأطاح بقوانين الجسد"[17]. مع ذلك، حتَّى في ذلك الحين، لم توضَع العذراءُ في حالةِ عدم القدرة على الخطيئة، بل استمرّت في الاهتمام بخلاصها وتغلّبت على جميع التجارب، على حدِّ قول القدّيسين باسيليوس الكبير ويوحنّا الذهبيّ الفم.[18]

(3) إنّ التعليم القائل إنَّ والدة الإله تطهَّرَتْ قبل ولادتها لكي يولدَ منها المسيحُ الطاهر، هو تعليمٌ لا معنى له؛ لأنَّه إذا لم يكن ممكنًا أن يولد المسيحُ الطاهر إلَّا إذا وُلِدَت العذراء طاهرة، فسيكون من الضروريّ أن يكون والداها أيضًا طاهرَين من الخطيئة الأصليَّة، وهما بدورهما يجب أن يولَدا من والدَين مطهَّرين. وهكذا، بالاستمرار في هذا الاتّجاه، سيَتعيَّنُ على المرء أن يصِلَ إلى استنتاجٍ مفاده أنَّ المسيح لا يمكنه أن يتجسَّد

[17] القدّيس غريغوريوس اللاهوتيّ، "في مدح البتوليّة".

[18] القدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم، تعليق على يوحنّا، العظة 85؛ القدّيس باسيليوس الكبير، الرسالة 160.

إلَّا إذا كان جميعُ أسلافه بالجسد، وصولاً إلى آدم، قد طُهِّروا مسبقًا من الخطيئة الأصليَّة. ولكن، حينئذٍ، لن تكون هناك حاجةٌ إلى تجسُّد المسيح نفسه، حيث أنَّ المسيح نزل إلى الأرض ليُزيلَ الخطيئة.

(4) إنَّ تعليم أنّ والدة الإله قد حُفظِتْ من الخطيئة الأصليّة، وكذلك تعليم أنَّها حُفِظَت بنعمة الله من الخطايا الشخصيَّة، يجعل الله غير رحيمٍ وغير عادل؛ لأنَّه إذا كان الله يستطيع أن يحفظَ مريم من الخطيئة ويُطهِّرها قبل ولادتها، فلماذا لا يُطهِّر سائر البشر قبل ولادتهم، بل يتركهم في الخطيئة؟ ويترتَّب على ذلك أيضًا أنَّ الله يخلِّص البشرَ بمعزلٍ عن إرادتهم، مُعيِّنًا أشخاصًا محدَّدين، قبل ولادتهم، للخلاص.

(5) هذا التعليم، الذي يبدو أنّه يهدف إلى تبجيل والدة الإله، يُنكِرُ في الواقع فضائلها كلّها. فإذا كانت مريم، حتَّى في رحم أمها، عندما لم تستطع حتَّى أن ترغب في أيِّ خيرٍ أو شرّ، قد حُفِظَتْ بنعمة الله من كلِّ دنَس، ثمَّ بهذه النعمة حُفِظَتْ من الخطيئة حتَّى بعد ولادتها، ففي ماذا تكمن استحقاقاتها؟ إذا كان يمكن وضعُها في حالةِ عدم القدرة على الخطيئة، ولم تخطأ، فلماذا مجَّدَها الله؟ إذا بقيَتْ طاهرةً من دون أيِّ جهد، ولم تملك أيَّة نزعةٍ تدفعها إلى الخطيئة، فلماذا تُوِّجَتْ أكثر من أيِّ شخصٍ آخر؟ لا يوجد انتصارٌ من دون خصم.

تجلَّى برُّ العذراء مريم وقداستها في أنَّها، كونها "بشرًا لها أهواءٌ مثلنا"، أحبَّت الله كثيرًا وأسلمَتْ ذاتها له، حتَّى إنَّها بِطَهارتِها رُفِعَتْ فوق سائر الجنس البشريّ. لهذا، وإذ عُرِفَتْ واختيرَت مسبقًا، خُصَّتْ بتطهير الروح القدس الذي حلَّ عليها، وبأن تحبَلَ منه بمخلِّص العالم نفسه. إنَّ تعليم تنزُّه العذراء مريم عن الخطيئة بنعمة الله يُنكِر غلبتها على التجارب؛ ويحوِّلُها من منتصرٍ يستحقُّ أن يتوَّج بتيجان المجد، إلى آلةٍ صمّاء لعناية الله.

ليس هذا تمجيدًا وشرفًا أعظم، بل هو تقليلٌ من شأنها، بهذه "الهديَّة" التي منحها لها البابا بيوس التاسع والآخرين الذين يعتقدون أنَّهم يستطيعون تمجيد والدة الإله بالبحث عن حقائق جديدة. لقد مجَّدَ الله نفسُه مريم الفائقة القداسة؛ إنَّ حياتها على الأرض ومجدها في السماء مُعظَّمان إلى درجة أنَّ الابتداعات البشريَّة لا يسعُها أن تضيف شيئًا إلى كرامتها ومجدها. وما يبتدعه الناس إنَّما يحجب وجهَها عن أعينهم. كتب الرسول بولس بالروح القدس قائلًا: أيُّها الإخوة، "احذروا لئلّا يسلبكم أحدٌ بالفلسفة والغرور [الخداع] الباطل، حسب تقليد الناس، حسب أركان العالم، وليس حسب المسيح" (كولوسي 2: 8).

إنَّ مثل هذا "الخداع الباطل" هو تعليم الحبل بلا دنس بالعذراء مريم من حنّة، والذي يبدو للوهلة الأولى أنَّه يُعلّيها، لكنّه، في الواقع، يُقلّل من شأنها. ومثل كلّ كذبة، هذا التعليم هو بذرةٌ من "أبي الكذب" (يو 8: 44)، الشيطان، الذي نجح من خلاله في التجديف على العذراء مريم. ويجب أن تُرفَضَ معه جميعُ التعاليم الأخرى التي انبثقت منه أو تُشابهه. إنَّ السعي لرفع العذراء الفائقة القداسة إلى مساواةٍ مع المسيح، وإعطاء آلامها كأمٍّ عند الصليب أهمِّيَّةً مُساويةً لآلام المسيح، بحيث عانى الفادي و"الشريكة في الفداء" بالقدر عينه، بحسب تعليم البابويّين، أو القول إنَّ "الطبيعة البشريَّة لوالدة الإله في السماء مع يسوع الإله-الإنسان يكشفان معًا الصورة الكاملة للإنسان"[19] - هو أيضًا خداعٌ باطلٌ وإغواءٌ من الفلسفة. في المسيح يسوع "لا ذكرَ ولا أنثى" (غل 3: 28)، وقد فدى المسيحُ الجنسَ البشريّ كلَّه؛ ولذلك، في قيامته "رقصَ آدم فرحًا وابتهجت حوّاء" (قنداق الأحد باللَّحن الأوَّل والثالث)، وبصُعوده، رفع الربُّ الطبيعة البشريَّة كلَّها.

كذلك، أن تكون والدة الإله "مُكمِّلةً للثالوث القدّوس" أو "أقنومًا رابعًا"؛ وأن يكون "الابن والأمّ استعلانًا للآب من خلال الأقنومَين الثاني والثالث"؛ وأن تكون العذراء مريم "مخلوقة، ولكنّها أيضًا لم تعُد مخلوقة" – هذا كلُّه هو ثمر حكمةٍ باطلةٍ وكاذبةٍ لا تكتفي بما حافظَتْ عليه الكنيسة منذ زمن الرُّسل، بل تسعى لتمجيد العذراء القدّيسة أكثر ممّا مجَّدَها الله.

بذلك، يتحقّق كلام القدّيس إبيفانيوس القبرصيّ: "لقد سعى بعضُ السُّذَّج ولا يزالون، في رأيهم عن القدّيسة الدائمة البتوليّة، لوَضعِها مكان الله". غير أنَّ ما يُقدَّم للعذراء في سذاجةٍ يتحوّل إلى تجديف بدلًا من مدحٍ لها؛ والعذراء الكلِّيَّة الطهارة ترفضُ الكذب، لكونها أمّ "الحقّ" (يو 14: 6).

نقلتها إلى العربيّة أسرة التراث الأرثوذكسيّ

Source: Saint John Maximovitch (n.d.), "The Error of the Immaculate Conception of Virgin." Posted online by John Sanidopoulos in *Orthodox Christianity Then and Now.* Link.

[19] الأرشمندريت س. بولغاكوف، "العلّيقة غير المحترقة"، ص 141.

لا تيأس عندما تسقط في الخطيئة

الأب نيكن ڤوروبييڤ

عزيزي وصغيري ن.!

ثمّة الكثير للإجابة عنه في رسالتك، لكنّني سأتكلّم على ما هو أساسيّ. حكمة الله عظيمةٌ إلى درجة أنَّ الربَّ يُحوِّلُ الشرَّ إلى خيرٍ للإنسان. وقد تحدَّث العديد من الآباء القدِّيسين عن هذه الفكرة. يمكن للإنسان أن يَخلُص من خلال إيمانه وحفظِه الوصايا، التي تُحوِّلُ نفْسَ الإنسان (روحه)، وتُجدّدها، وتجعلها جديدةً على صورة الله، أو بتعبيرٍ أدقَّ، على صورة يسوع المسيح المخلِّص.

الصفة الأساسيَّة للإنسان "الجديد" هي التواضع ("تعلَّموا منِّي لأنِّي وديعٌ ومتواضع القلب..."). من دون التواضع، لا يُقرِّب حفظُ الوصايا الإنسانَ من الله، وليس ذلك فحسب، بل ويجعله خصمًا لله، لأنَّه إن لم يوجد التواضعُ فستوجد الكبرياء حتمًا. برأيي، ينطبق هنا ما ورد في الإنجيل بخصوص الشيطان الذي يُطرَدُ من الإنسان فيتجوّل في الخارج، وبعد أن يرى البيت نظيفًا ومرتّبًا ولكنْ فارغًا، يأتي بسبعة شياطين أخرى أشرَّ منه ويستقرّ معها في نفس الإنسان، فتصير أواخرُ هذا الإنسان أشرَّ من أوائله.

يشرح القدِّيس مكاريوس المصريُّ علاقة التواضع بالأهواء الأخرى مُستخدمًا مثَلَ الوليمة التي أُقيمت للملك وكبار المملكة. كانت الأطعمة قد أُعِدَّت من دون ملح (التواضع)، فلم يتلقَّ مُنظِّم الوليمة شُكرَ الملك بل غضبه. من هنا، إنّ فضائل الإنسان جميعها باطلةٌ من دون التواضع[1]. عندما ينتبه الإنسان إلى نفسه، ويجاهد باستمرارٍ ضدَّ الخطيئة، يفهم في النهاية كم هو فاسدٌ وكم أنَّ كيانه ممتلئٌ كلُّه بالكبرياء. وإذا تغلَّبَ على الاعتداد بالنَّفْس والغرور والغطرسة، فهذا يُعادل التغلُّب على الخطيئة بكلِّيَّتها.

هكذا، يتَّضح أنَّ السقوط في الخطيئة يمكنه أن يساعد الإنسان على اكتساب التواضع - بشرط ألَّا يلوم أحدًا أو شيئًا على سقطاته، بل أن يلوم نفسه فقط. الإنسان هو المذنب بالكامل؛ قد تُغويه الظروف والشيطان

[1] من دون التواضع، تدخل الكبرياء إلى النفس ومعها سبعة شياطين، أي الأهواء كلّها.

ليرتكب الخطيئة، وقد تُسهِّلها له، لكنَّ القرار النهائيَّ يعود إلى الشخص، وهو المسؤول عنها بالكامل. وما يُثبِتُ ذلك هو ندم الضمير بعد الخطيئة.

خلال حرب الإنسان ضدَّ الخطيئة الكامنة فيه، وخلال سقطاته المتتالية، يدرك فساده وعجزه. يدرك ذلك بالخبرة لا نظريًّا، ويكتسب التواضع شيئًا فشيئًا. تهزمه الخطايا دائمًا، فيسقط عند أقدام الربِّ بدموعٍ وقلبٍ منسحق، ويُقرُّ بعجزه متوسِّلًا إلى الربِّ: "يا الله، إن شئتَ، تستطيع أن تُطهِّرني (هكذا تكلّم الأبرص)، لأنَّني لا أستطيع أن أفعل شيئًا بنفسي. يا ربُّ، خلِّصني. يا ربُّ، علِّمني أن أفعل مشيئتك. يا ربُّ، أخرِجْ نفسي من السجن"[2]. حينئذٍ، يعرف الإنسان رحمة الله اللَّامتناهية تجاه الإنسان الساقط، لأنَّ الربَّ، عندما يرى توبة الإنسان الصادقة، يحميه ويمحو خطيئته، ويشفي جُرحَ نفسه الذي سبَّبته الخطيئة؛ فيعرف الإنسان بالخبرة وجودَ الله وعنايتَه وقصدَه للإنسان، ويعترف بأنَّ الربَّ قريبٌ من منكسري القلوب، وأنَّه حقًّا طبيب نفوسنا...

هكذا، فإنَّ ارتكاب الخطايا، وهو شرٌّ، يمكن أن يكون سببًا لخيرٍ عظيمٍ جدًّا. وهنا تكمنُ حكمة الله العجيبة، كما في كلِّ شيء، نعم، في كلِّ شيء.

لذلك، يا عزيزي ن.، لا تيأس عندما تسقط في الخطيئة، بل لُمْ نفسكَ أمام الله، واعترفْ له بخطئك من دون أن تتَّهم به أحدًا، وتواضعْ، واعترفْ بضعفكَ في كلِّ شيء، واطلبْ من الربِّ أن يحقِّق فيك وصاياه المقدَّسة. غير أنَّ هذا لا يعني أنَّه عليكَ ألَّا تجاهد بكلِّ قوَّتك. يجب على المرء أن يجاهد بكامل قوَّته، وأن يتلقّن أساليب هذا الجهاد من كتابات الآباء، وأن يتوقَّع الظروف التي تساعد على النصر أو الهزيمة، فيتجنَّب الأولى ويبحث عن الثانية. وقبل كلِّ شيء، على الإنسان أن يطلب عون الله عند أدنى ظهورٍ للأفكار الخاطئة، مُدرِكًا تمامًا أنّه عاجزٌ عن التغلُّب على الخطيئة بنفسه. ثمّ، إذا سقطتَ في الخطيئة، وبعد ارتكابها، يجب أن تتوسَّل إلى الله، من دون خجل، وتقول له: "يا ربُّ، أنتَ ترى ما أرتكبُه، ارحمني، أعنِّي، حرِّرني من سُلطة الشيطان"... وابكِ أمام الربِّ في داخلك، توسَّلْ إليه ليُساعدكَ في كلِّ شيء؛ افعلْ هذا طول حياتك، لأنَّه من الصعب أن تُحفَظَ الوصايا في هذا العالم. كان الآباء القدماء يبكون على رجال زماننا، إذ كانوا يعلمون أنَّ نفوسًا كثيرةً ستهلك بسبب الخطايا.

[2] عندئذٍ فقط سيفهم الإنسان حاجته إلى مخلّصٍ ومجيئه إلى الأرض، ومعنى ذبيحته على الصليب.

ثمّة وسيلةٌ أخرى قويّةٌ للجهاد ضدَّ الخطيئة: بمجرَّد أن تسقط في خطيئةٍ خطيرة، اذهبْ واعترفْ بها لأبيك الروحيّ. وإنْ لم يكن ذلك ممكنًا على الفور، فافعلْ ذلك في أقرب فرصةٍ ممكنة، ولا تؤجِّل الأمر! إنَّ مَن يعترف بخطيئته غالبًا وفورًا يُثبِت أنَّه يكره الخطيئة ويكره عبوديَّة الشيطان، وأنّه مستعدٌّ لتحمُّل الخجل في الاعتراف لكي يتخلَّص من الخطيئة، ويتطهَّر منها، ويتلقَّى من الربِّ مغفرة الخطايا المرتكبة، بل وأيضًا القوَّة للجهاد في المستقبل، وأخيرًا، النَّصرَ الكامل، من دون أن يعتدَّ بنفسه ويسقط في الكبرياء. افطنْ لهذا جيّدًا (ففخاخ الشيطان موجودةٌ في كلِّ مكان).

ضعِ الأُسُسَ الصحيحة: حارِبْ على قدر استطاعتك، ولا تيأسْ إذا سقطتَ، واحزنْ، وتوسَّل إلى الربِّ، وحدِّدْ مُسبَقًا الظروف الضارّة والخطيرة التي يجب أن تهرب منها، واعترفْ فورًا لأبيك الروحيِّ، واكتسب التواضع بتذكُّر خطاياك القديمة والحاليّة. سيأتي الربُّ لإعانتك، وستكون جنديًّا مسيحيًّا مختبرًا، قادرًا حتَّى على مساعدة الآخرين في المستقبل.

لا تستسلمْ للكسل. إذا سيطر عليكَ الكسل في عملٍ معيَّن، فانتقِلْ إلى شيءٍ آخر. لا تُهملْ قانون صلاتك الصغير. واعتدْ أن تتوجَّه مرّةً في الساعة على الأقلِّ إلى الربِّ ووالدة الإله، وتطلب منهما أنْ يغفرا لكَ ويُساعداك، وإذا استطعتَ أن تفعل ذلك بتواترٍ أكبر، فافعلْ. ليُساعدكَ الربُّ، بصلوات القدِّيس سيرجيوس وصانعي العجائب في رادونيج. كُنْ شجاعًا، لا تستسلمْ. سلامٌ لك.

ليباركْكَ الربُّ ويُنِرْ طريقكَ لعمل الخير، ويحمِكَ من كلِّ شرّ. فلتكُن الخطايا سببًا لتكتسِب التواضع ودموع القلب. اجعلْ كلَّ شيءٍ مفيدًا لك، فكلُّ شيءٍ يُسهم في خير الإنسان الذي يحبُّ الله، أي الذي يطلب الربَّ بكلِّ نفسه من خلال حفظ وصاياه المقدَّسة.

أبوك الذي يحبُّك. 15 نوفمبر 1950.

نبذة عن الأب نيكُن ڤوروبييڤ (1894-1963):

وُلِدَ الأب نيكُن في روسيا القيصريّة، وشهد جميع الأحداث المأساويّة في القرن العشرين مثل: الثورة، والعديد من الحروب، والقمع، والاضطرابات الاجتماعيّة. كان ابن فلّاح، ذكيًّا وموهوبًا، وقد تميّز بين إخوته الستّة بالجدّيّة، والصدق، والوداعة، والطيبة. كان يبحث دائمًا عن الجوهر، راغبًا في اكتشاف معنى الحياة.

جرى التنبّؤ له في طفولته بأنّه سيكون راهبًا، وبعد أن أصبح راهبًا في سنوات إغلاق الأديرة وتدمير الكنائس، جاهدَ زاهدًا في إحدى الرعايا حتّى نهاية أيّامه في العالم. نجا من الاعتقال والسجن والنفي إلى معسكرات سيبيريا. عاش ناسكًا، وكان قاسيًا على نفسه، ولكن مُحبًّا للآخرين. اكتسب صلاة يسوع المستمرّة وموهبة التمييز الروحيّ. وكانت نصائحه عن الحياة الروحيّة مبنيّةً على خبرةٍ شخصيّةٍ ومليئةً بنور نعمة الله.

رقد في 7 أيلول 1963، ومن المتوقّع أن تُعلن الكنيسة الروسيّة قداسته قريبًا.

نقلتها إلى العربيّة أسرة التراث الأرثوذكسيّ

Source: Higoumène Nikon Vorobiev (2015). *Lettres Spirituelles*. In *Grands spirituels orthodoxes du XXe siècles* (Jean-Claude Larchet, eds.). "L'Age d'Homme", Lausanne, Suisse.

القدّيسون عادوا إلى الفردوس

حديثٌ سادسٌ حول القدَّاس الإلهي – الجزء الثاني

المتروبوليت أثناسيوس (ليماسول)

سأخبركم قصَّة ساعة. في العام 1977، ذهبتُ إلى الإسقيط الجديد قاصدًا الشيخ يوسف [الفاتوبيذي]. وإذْ لم أملك ساعةً، اشترى لي الشيخ ساعة منبِّهٍ تعمل بالبطاريّة (كان قد بدأ للتوّ بيع هذا النوع من الساعات. قبل ذلك، كانوا يستخدمون ساعاتٍ يُعادُ ضبطها ميكانيكيًّا). أحضر الشيخ الساعة إلى قلّايتي (كانت الساعة لا تزال في علبتها التي بيعَت فيها للمحافظة عليها)، ونبَّهني قائلًا: "إنَّ ساعة المنبِّه هذه غاليةُ الثمن، فاحرصْ على ألَّا تُخرجها من العلبة. وعندما تريد معرفة الوقت، افتح العلبة وانظر إليها، لكنْ لا تُخرجها من العلبة". فعلتُ تمامًا كما طلب منّي الشيخ، وما زلتُ أحتفظ بتلك الساعة داخل العلبة عينها. كم سنة مرَّت منذ العام 1977؟ ما زالت الساعة تعمل بشكلٍ رائع. كلّما ذهبتُ إلى مكانٍ ما في الجبل المقدَّس - سواءٌ أرِكبتُ بغلاً للصعود إلى كاتوناكيا أم صعدتُ على متن قاربٍ- كنتُ أضع الساعة في علبتها داخل حقيبتي. كنتُ بحاجةٍ إليها حتّى لا أستغرق في النوم وتفوتني خدمة الصلاة، ولكي أتمِّم واجباتي في مواعيدها. أسقطتُها آلاف المرَّات، لكنّها بقيَت سليمةً وظلَّت تعمل لأنَّها كانت في علبتها.

بصفتي شابًّا وطالبًا جامعيًّا، لم أفكّر قطّ بالاحتفاظ بساعةٍ في علبتها. كان من الطبيعيّ أن أُخرجها من العلبة وأزيل الغلاف... ولكنْ بما أنَّ الشيخ أعطاني هذه البركة، فقد نفّذتُها. كسرتُ ساعاتٍ كثيرةً في حياتي، لكنَّ ساعة الشيخ ما زالت تعمل! وأظنُّ أنَّها ستظلُّ تعمل لسنواتٍ عديدةٍ إضافيّة، مع أنَّ الزرَّ قد تآكل والعلامة التجاريَّة قد امّحَتْ نتيجة الاستخدام المتكرِّر طيلة تلك السنوات.

علَّمنا الشيوخ أن نتعامل باحترامٍ ومحبّةٍ، لا مع الناس فحسب، بل مع كلِّ شيءٍ يحيط بنا عمومًا.

يقول بعضُ أهل زماننا: "الأهمُّ أنْ نحبَّ الناس". لا أختلفُ معهم في الرأي. بالطبع، علينا أن نحبَّهم لأنَّ كلَّ شخصٍ هو صورة الله. يقول آخرون: "عليكم أن تُحبّوا لا الناس فقط، بل الحيوانات أيضًا". حسنًا، أحِبُّوا الحيوانات، ولكنْ ضمن حدود المنطق. ليس علينا أن نولَع بها، ولا داعي لأن نجلس ونتحدّث معها

ونُشاطرها مشكلاتنا – من المؤسف أنّ هذا التصرُّف الأخير قد باتَ سمةً من سمات عصرنا. حتّى إنَّه توجد مقولةٌ اليوم تقول: "إنْ لم أخبر كلابي بمشكلاتي، فمَن سأخبر؟".

يجب أن أُبديَ سلوكًا طيِّبًا وعطوفًا تجاه الناس. فَلْأسلُكْ سلوكًا مشابهًا نحو الأشياء المحيطة بي: مسقط رأسي، مدينتي، منزلي، مكتبي. فلتكن أشيائي كلُّها مرتَّبةً بقدر ما هي أيضًا مقدَّسةٌ بنعمة الله.

حتّى مُقتنيات القدِّيس تتقدَّس. عندما نزور أماكن عاش فيها قدّيسو كنيستنا وعمِلوا (مثلًا قلّاية القدّيس نكتاريوس في آيينا)، يمكننا رؤية الأشياء والأدوات التي استخدموها: قلالٍ متواضعةٌ وأكثر الأشياء بساطة، ولكنْ، يا للحبِّ المتجلِّي في كلِّ شيء! ما من أثرٍ للّامبالاة. لا يوجد غرضٌ واحدٌ مرميٌّ كيفما اتّفق.

إنَّ الله، الذي نحن على صورته، لم يخلق شيئًا من دون اكتراث، بل أضفى على كلِّ شيءٍ ترتيبًا مُذهلًا وتناغمًا وتوازنًا عجيبَين. كذلك، خُلِقَ الإنسان ليكون في علاقةٍ سليمةٍ ومنسجمةٍ مع كلِّ ما حوله. عندما لا يتمتّع الإنسان بمثل هذه العلاقة، يحدث خللٌ في نفسه، ويسود في داخله عدم التوازنِ وعدم التناغم والكراهيةُ تجاه الأشياء التي يستخدمها، تجاه منزله والمكان الذي يعيش فيه، والأشخاص المسؤولين عنه. قد لا تتّفقُ مع غيركَ حول أمرٍ ما، ولكن لا حقَّ لك في أن تكره أحدًا أو أن تكره الأشياء أو أيَّ شيءٍ من حولك، ولا يحقُّ لك، بالأخصِّ، أن تكسر أو تُحطّم شيئًا. يُعلِّمنا القدّاس الإلهيّ ذلك، ألَّا نزدري أيّ شيء.

تذكّروا القدّيس سلوان الآثوسيّ الذي راح ينوح بعد أن سحقَ ذبابةً، لأنَّه آذى خليقة الله. لم يوجد في حياته أيُّ أثرٍ للاستهتار بالأشياء التي حوله.

لا نُصلِّي في القدّاس الإلهيّ من أجل البلد والمدينة وأبنيتها فحسب، بل وأيضًا من أجل "المؤمنين الساكنين فيها" – أي من أجل سكّان هذه المدينة وهذا البلد. نُصلّي من أجل إخوتنا في الإيمان، من أجل أبناء الكنيسة المنتشرين في أصقاع الأرض كلِّها. نحن بالطبع نُصلّي من أجل العالم بأسره لأنّ كلَّ إنسانٍ هو صورة الله. إنَّ الربَّ يدعو كلَّ إنسانٍ إلى ملكوته، لكنّنا نتضرّع إليه بطريقةٍ خاصّةٍ من أجل إخوتنا في الإيمان. حيثما وجِدنا نحن المسيحيِّين الأرثوذكسيِّين في العالم، يوحِّدُنا القدّاس الإلهيّ ويسمح لنا بأن يساند واحدُنا الآخر بصلاته؛ إنَّه يوحِّدنا بنعمة الله. صلاة مسيحيٍّ واحدٍ تغطِّي حاجات مسيحيٍّ آخر ومشكلاته وبلاياه والصُّعوبات التي يواجهها.

***

بعد هذه الطلبة، يُعلن الشماس التَّالي: **"من أجل اعتدال الأهوية وخصب الأرض بالثِّمار وأوقاتٍ سلاميَّة، إلى الربِّ نطلب"**. بكلامٍ آخر، فلنسأل الربَّ رياحًا مؤاتية ومعتدلة، تلك التي لا تُضرُّ بصحّة الإنسان، ومن أجل وفرة حصاد الثمار التي تُقوّينا، ومن أجل أوقاتٍ سلاميَّةٍ لئلّا يعاني الجنس البشرّي من الكوارث الطبيعيّة التي تحلُّ بالعالم، ولا يتقلقل كوكبنا بكوارث طبيعيَّة معيَّنة.

عندما خلقَ الله العالم وكلَّ ما فيه، لم يوجد شيءٌ في طبيعة العالم المخلوق أوّلًا من شأنه أن يتمرَّد على الإنسان. لم تكن الوحوش تُهاجمه. كانت الأُسود والفهود والدِّبَبة والأفاعي مُسالمة، لا تبدي أدنى عدوانيَّة تجاه آدم أو تجاه بعضها. في ذلك الوقت، لم يكن هناك زلازل أو حرائق أو أعاصير أو أيٌّ من الكوارث الأخرى التي تضرب العالم المعاصر. كان الانسجام التامّ يسود الطبيعة. بعد سقوط الإنسان، تأصّلَ في عالم الطبيعة عدمُ الدوام والتبدُّل. فالإنسان، بابتعاده عن الله، جرَّ معه الطبيعة إلى السقوط.

إنَّ النُّسَّاك القدّيسين، بعودتهم إلى الحالة المباركة التي كان عليها آدم قبل السقوط، لا يعودون يعانون من مخاطر العالم الطبيعيّ. تُطيعهم عناصر الطبيعة ولا تُهاجمهم الحيوانات. ويمكنكم إيجاد مئات الأمثلة عنهم في سيَر القدّيسين، القدماء منهم والمعاصرين. لقد كتبَ السيّد خريستاكيس خريستوذوليذيس، الموجود معنا اليوم، كتابًا بعنوان "القدّيسون والحيوانات"، حيث يضرب أمثلةً يُبيّن فيها كيف عاش القدّيسون مع الحيوانات الضارية ولم تكنْ تؤذيهم. في نهاية المطاف، وعلى حدِّ قول القدّيس إسحق السريانيّ، تمتلك الحيوانات بعض المعرفة حول ما كان عليه آدم قبل السقوط؛ وبفضل ذلك، تستشعر القداسة في الناسك الذي بلغ حالة آدم، فلا تُزعجه. قرأتُم جميعًا سيرة القدّيس باييسيوس الآثوسيّ. كم من مرّةٍ كان عليه أن يتعامل مع الأفاعي السامّة والدِّببة... إنّ القدِّيسين يتصادقون مع الطبيعة، والطبيعة تتصادق معهم من دون أن تؤذيهم.

تعاني الطبيعة بصورةٍ لا تُفسَّر من جرّاء خطيئة الإنسان. تذكَّروا مثلًا كيف أظلمت الشمس خلال صلب المسيح وحدثت زلزلةٌ عظيمة. ليس المسيح هو مَن أظلمَ الشمس وزلزلَ الأرض؛ لم يأمرْ بأن يحدث هذا كلُّه بسبب صَلبه، بل كما تقول الطروباريّة الجميلة التي تُرتَّل يومي الجمعة والسبت العظيمَين، تألّمت الخليقة

بأسرها عندما رأت الله مُهانًا ومصلوبًا. تمرَّدت الطبيعة على هذا الإثم الذي جرى بصورةٍ تتجاوز الحدود كلّها، ولهذا أظلمت الشمس وحدثت الزلزلة.

اليوم، بات الناس بعيدين جدًّا عن الطبيعة، حتَّى إنَّهم لا يشعرون بالحاجة إلى أن يصلّوا "من أجل اعتدال الأهوية وخصب الأرض بالثمار وأوقاتٍ سلاميّة"، بل ويضحكون ويسخرون عندما يرون آخرين يصلُّون من أجل هذه الأمور. في كلّ عامٍ، عندما نرسل تعميمنا طالبين إقامة صلوات الاستمطار في رعايانا، يسخر منَّا الكثير من الصحفيّين قائلين: "لقد اطَّلع هؤلاء الكهنة على توقُّعات الطقس قبل بضعة أيّام، ورأوا أنَّها ستُمطر يوم الجمعة، فحدَّدوا موعدًا لإقامة صلاة الاستمطار في ذلك اليوم". لا ينتبهون إلى أنَّنا قد قمنا بتوزيع التعميم قبل ثلاثة أسابيع من صلاة الاستمطار، في حين أنَّ توقعات الطقس لا تصدر إلّا قبل عشرة أيّام. وماذا عن عدم توفُّر هذه التوقّعات قبلًا، وبعد أن كانت الكنيسة تُقيم صلاة الاستمطار كان المطر يبدأ بالهطول؟ شهدتُم جميعًا ذلك مرّاتٍ عدّة، كيف أنَّه خلال فترات الجفاف الطويلة، كان الطقس يتبدَّل بعد أن يقوم شعبُ الله، الكنيسة بأسرها، بالصلاة من أجل هُطول المطر.

في صلاة الاستمطار، نسأل الله أن يمنحنا ماءً للشرب، أن يرسل لنا أمطارًا صالحةً لنرتوي من الماء. سيقول بعضهم: "لدينا ماءٌ، فلِمَ نُصلّي؟". حسنًا، لدينا ماء – يمكننا شراؤه من المتجر. ولكن في صلواتنا من أجل هطول المطر، لا نتكلّم على الناس فحسب.

نصلّي أيضًا لكي يشفق الربُّ على الحيوانات التي ليس لها مكانٌ لتشرب منه، والطيور والأشجار والأعشاب: "اذكر الشعبَ الواثق بك واذكر الطيور أيضًا والبهائم وأرسِلْ ريحًا نديّةً تُزيل الجفاف. واجعلْ زرعَ الأرض صالحًا لغذاء الإنسان والحيوان (الإفشين الثالث من الخدمة التي تُقال حين احتباس المطر).

إنَّ نُصوص هذه الصلوات تجعل المرء يشعر بمسؤوليّةٍ تجاه العالم الطبيعيّ وبضرورة الصلاة من أجله. عندما أرى معاناة الأشجار بسبب غياب الرطوبة خلال فترات الجفاف الطويلة، وكيف أنَّها لا تُثمرُ ثمَّ تجفّ، فكيف يمكنني أن أبقى غير مبالٍ وأن أقول ببساطةٍ: "لا يهمُّني إن أمطرَت أم لم تُمطر" أو (وهذا يُقال أيضًا): "أُفضِّلُ ألا تُمطر حتَّى لا تتَّسخ الشُّرفة".

فقط عندما ندرك مسؤوليَّتنا، يمكننا أن نُصلِّي بصدق، وإلَّا فسنبقى غير مبالين. على سبيل المثال، عندما نريد أن نأكل حبّة طماطم، سنذهب ببساطةٍ إلى المتجر لشرائها. وإذا كنتُ لا أعلم كم يتطلّب إنتاج الطماطم من جهدٍ، سأرميها بسهولة. كذلك، عندما لا أعلم كم من الجهدِ يتطلَّب إنتاج زيت الزيتون، فلن آبه إذا سقطت قارورة زيتٍ على الأرض وانكسرت. أمّا عندما أبذل جهدًا لأجمعَ دلوَي زيتونٍ لعصرهما للحصول على قارورة زيتٍ واحدة، فسأُقدِّر ذلك الزيت حتّى آخر قطرةٍ منه، وسأحرص على ألَّا يُهدَر منه شيءٌ.

انطلاقًا من وجهة النظر هذه، فإنَّ الأزمة الاقتصاديّة الحاليّة لها جانبٌ إيجابيّ، إذ يمكنها أن تُعلِّمنا أن نحرص على أشيائنا ونُقدِّرها. يمكن لهذه الأزمة أن تُعلِّمنا أن نصلِّي إلى الله طلبًا للمطر، ومن أجل حفظ ثمار الأرض، وخصب التربة، وطقسٍ ملائم. عندما تُعلِّمنا الكنيسة أن نُصلّي من أجل هذا كلِّه، فإنَّها تُخرِجُنا من حدود الأنا، وتجعلنا أناسًا ذوي ضميرٍ كونيّ – أناسًا لا يعاملون العالم من حولهم بعداوةٍ أو لامبالاة، بل بمحبّةٍ تجاه كلِّ شيءٍ وكلِّ إنسانٍ، لأنَّه هكذا بالضبط يجب أن يكون أبناء الله.

نقلتها إلى العربيّة أسرة التراث الأرثوذكسيّ

Source: Metropolitan Athanasios of Limassol (2022). “The Saints Returned to Paradise! Sixth Talk on Divine Liturgy”, *OrthoChristian*.

الربّ يحبّكم أكثر بكثيرٍ ممّا تحبّون أنفسكم – الجزء الثاني

الأب أثناسيوس السيمونوبيتريتي

ثمّة أمرٌ علينا أن نعرفه: عندما نَجِدُ أبًا روحيًّا، يجب أن نثق به ثقةً تامّة، وأن نكشف له ضعفاتنا الروحيَّة كلَّها ولا نخفي عنه شيئًا على الإطلاق.

هل تعلمون أنَّ أصغر ذرَّة غبارٍ، إذا دخلت حاسوبًا أو قطعةً منه، يمكنها أن تُسبِّب ضررًا كبيرًا؟ يحدث هذا في الحياة الدنيويَّة، لكنَّه يحصل بالأكثر في الحياة الروحيَّة. يجب أن نكون متيقِّظين لكلِّ تفصيلٍ دقيق. علينا أن نعترف بصِدقٍ لأبينا الروحيِّ، مثلما نزور الطبيب ونكشف له أسرارنا الداخليّة. فإنْ لم نُخبِره عن الأهواء التي تُعذِّبنا، كيف له أن يتوصّل إلى التشخيص المناسب ويساعدنا بقوله: "كنْ حذرًا بخصوص هذا الهوى، قُمْ بكذا ولا تفعل كذا!"؟ إذا لم نفتح له قلبنا، فلن يتمكّن من مساعدتنا.

إنّنا لا نقوم بما يجب علينا فعله. نحن منشغلون طيلة الوقت، لكنّنا لا نَصِلُ إلى أيّ مكان. من المهمّ جدًّا أن تثِقوا بأبيكم الروحيِّ ثقةً تامّة. عندما تأتون إليَّ أو تقصدون شيخًا آخر وتعترفون تحت البطرشيل، فإنَّكم تأتون إلى المسيح نفسه. نحن فقط الأيدي التي يستخدمها المسيح، بكلِّ محبّته للبشر، لكي نحصل جميعُنا على خلاصنا.

قلِّلوا انتباهكم إلى العيوب الصغيرة التي قد يمتلكها الأب الروحيّ، وابحثوا عن العنصر الإلهيّ الذي لدى هذا الأب أو الشيخ الذي سلّمتُم أنفسكم له بثقة. كلّما أظهرتُم صدقًا ومحبّةً أكبر لأبيكم الروحيِّ، كرَّسَ هو أيضًا نفسَه أكثر من أجلكم. سيُنيره الروح القدس، وكما نعلم من الناموس الروحيّ، سيُسفِر هذا عن اتِّحادٍ روحيٍّ. إذا عشتُم بهذه الطريقة، ستُلاحظون كيف أنَّ كلام أبيكم الروحيِّ يتردَّد في مسامعكم: "لا تفعلوا هذا الأمر أو ذاك الأمر!".

عيشوا بالطريقة التي أصِفُها لكم الآن، وإذا لم تتسنَّ لكم الفرصة لمراسلتي إلى الجبل المقدّس، فاذكروني في صلواتكم عن بُعد! حاولوا أن تشعروا بمدى عظمة اتِّحاد النفوس! ستشعرون بأمرٍ عظيمٍ يحدث عندما يُصلِّي الأب المعرِّف من أجلكم، وعندما تحفظكم صلواته. يحصل سرٌّ عظيمٌ، أبوَّةٌ وبنوَّةٌ روحيَّة. إذا لم نثِق

تمامًا بأبينا الروحيّ، فإنَّ صراعاتنا الداخلية ستشلُّنا روحيًّا ولن نكون قادرين على القيام بأيِّ شيء. سنُواصِلُ خوض جهادٍ قاسٍ وغير مُثمِر.

يجب أن نسعى أيضًا للحصول على قانون صلاةٍ من أبينا الروحيّ، يكون مناسبًا لقدرتنا. غالبًا ما تأتون إلى أبيكم الروحيّ وتقولون: "أبتاه، أنا خاطئٌ كبير، حدِّد لي قانون صلاةٍ شديد الصعوبة!".

يا أخي، لا أعرف أيَّ قانون صلاةٍ يجب أن أعطيك. جلُّ ما أعرفه هو أنِّي لم أُصَلِّ قبل أن آتي لتقبُّل الاعترافات، ولم أصُمْ في الليلة السابقة، ولم أُقِمْ سهرانيّةً ولم أصنع سجداتٍ لكي ينيرني الله أنا البائس. أتظنُّ فعلًا أنَّه يمكنني أن أخدم لخلاص نفسك؟ إذا ما فعلتُ ذلك فسأكون قاتلًا، قاتلًا روحيًّا، غير مستحقٍّ للثقة التي وضعها فيّ الربُّ، ولا لنعمة البطرشيل الممنوحة لي. لذلك، لا أعرفُ أيَّ قانون صلاةٍ يجب أن أعطيك. ولكن، انتبهوا، كثيرًا ما نُجرَّب من الناحية النفسيَّة عندما نظنُّ أنّنا نملك قدرةً أكبر ممّا يراه فينا الأب الروحيُّ وما يقوله لنا. يطلب منك الأب مثلًا أن تصنع اثنتي عشرة سجدة، لكنَّك تعترض قائلًا: "ولكنْ، يا أبانا، لا تكفي اثنتا عشرة سجدة. دعني أصنع خمسمئة!".

"يا بنيَّ، اعمل اثنتي عشرة سجدة في اليوم! وإذا واصلتَ القيام بها يوميًّا، عندها أنا نفسي سأقول لك، أو بالأحرى، الروح القدس نفسه سيقول لك: اصنعْ ثلاثًا وثلاثين سجدة! أو اصنع مئة!".

علينا أن نتصرّف دائمًا ببركة الشيخ، أبينا الروحيّ، وليس بناءً على تمييزنا نحن، لأنّنا نؤذي أنفسنا أحيانًا بمحاولتنا المغالاة بالأعمال. قد نؤذي أنفسنا بهذه الطريقة، ثمّ نحاول القيام بالأعمال النسكيّة ونحن بصحّةٍ سيّئة! يجب أن نكون شديدي الانتباه - علينا أن نكتشف قدرتنا. ما المسافة التي نستطيع أن نركضها؟ مئة متر؟ فلنركُض هذه المسافة! إذا كنّا نستطيع أن نركض ألف متر، فلنركضْ تلك المسافة! أنستطيع أن نركض ماراثون؟ فلنفعل ذلك! ولكنْ علينا أن نكتشف قدرتنا. علينا أن نناقش الموضوع مع أبينا الروحيّ، ثمَّ نقوم بكلّ ما اتّفقنا عليه. يجب ألّا يسارع المرء إلى القول إنَّه قادرٌ على عمل أربعمئة سجدة ثمَّ يقول لاحقًا: "آه، لا أستطيع أن أصنع 400 سجدة اليوم! إنّني متعَب!".

لماذا طلبتَ بركةً من أبيك الروحيّ إذًا للقيام بأربعمئة سجدة ولم تسمح له بمساعدتك؟

بماذا أنصحكم أن تفعلوا كلّ يومٍ لكي تُعاينوا الله؟ بأن تحفظوا الأصوام التي وضعتها كنيستنا على سبيل المثال. إذا حذّرَنا الطبيب قائلًا: "انتبه! لا تأكل البيض لأنّه سيرفع مستوى الكوليسترول لديك!"، فإنّنا نقول: "هذا ما قاله لي الطبيب!". ثمَّ ينزل ملاك الربِّ من السماء ويقول لنا: "كُلْ بيضة الفصح هذه أيُّها المسيحيّ، فاليوم هو عيد القيامة! كُلْ بيضةً واحدةً فقط!"، فنعترض قائلين: "لا، لا! طلب منّي الطبيب ألا آكل بيضًا، فهو يرفع مستوى الكوليسترول لديّ!".

أتبع رأي طبيب عائلتي، لكنّني لا أُصغي إلى طبيبي الروحيّ. لا أُصغي إلى الله الذي وضع الصوم من أجلنا. نحن نعتبر الصوم أمرًا غير ذا أهمّيّة، لكنّه مهمٌّ حقًّا. كان الصوم وصيّة الربِّ الأولى للجنس البشريّ. عليكم أن تتذكَّروا ذلك دومًا. قال الربُّ للمجبولَين أوَّلًا في الفردوس: "وأمّا شجرة معرفة الخير والشرّ فلا تأكل منها، لأنّكَ يومَ تأكلُ منها موتًا تموت" (تكوين 2: 17).

ما هذا؟ أليس صومًا؟

ثمَّ عليكم أن تقرؤوا الكتاب المقدَّس. يا لشقائنا نحن الأرثوذكسيّين الذين نملك الإيمان الحقَّ، لأنّنا لا نقرأ الكتاب المقدَّس كثيرًا! يا للخزي! كيف يمكننا أن نصبح حكماء ونقتبل كلمة المسيح، بل والمسيحَ نفسَه، إذا كنّا لا نعلم ما الذي قاله لنا؟ عندما ألتقي بأشخاصٍ من شهود يهوه أو الخمسينيّين، أنظر إليهم وغالبًا ما أنوح على نفسي. إنّهم يعيشون في وهمٍ روحيٍّ، ومع ذلك، فهُم يدرسون الكتاب المقدَّس. ستقولون لي إنَّهم يدرسونه كالببّغاوات... حسنًا، يجب عليك أنتَ أيضًا، يا أخي الأرثوذكسيّ، أن تدرس الكتاب المقدَّس كالببّغاء، وسترى كم هو رائع!

إلى جانب الكتاب المقدَّس، علينا أن نقرأ كتابات آباء الكنيسة، لأنَّها استكمالٌ للكتاب المقدَّس. فالروح القدس عينه الذي أنار الرسل القدّيسين ليكتبوا النصوص الإنجيليّة قد أنار أيضًا آباء الكنيسة ليُفسِّروها. علينا قراءة الكتابات الآبائيّة كثيرًا. وبقيامنا بذلك، نُزيلُ أيَّ سوء فهمٍ مُحتمَلٍ متبقٍّ لدينا بعد قراءة الكتاب المقدّس، بما أنّ الآباء يقدِّمون تحليلًا عميقًا للإنجيل في الروح القدس.

إنَّ سيَر القدّيسين هي أيضًا استكمالٌ للكتاب المقدّس، فالقدّيسون أناجيل حيَّة. نُذهَلُ بمجرّد قراءة سيَر حياتهم. تقرؤون كيف صام أحد القدّيسين وتقولون لأنفسكم: "وأنا أيضًا سأصوم مثله!". تقرؤون عن قدّيسٍ

آخر كان يجاهد بالسهرانيّات، حارمًا نفسه من النوم، وتقولون لأنفسكم: "سأكون مثل هذا القدّيس. سأقوم بسهرانيّاتٍ في الليل".

تقرؤون في سيرة حياة قدّيس ثالثٍ كيف احتملَ صليبَ الاستشهاد وتقولون: "وأنا أيضًا سأحمل صليب الاستشهاد مثل هذا القدّيس".

تقرؤون في سيرة حياة قدّيسٍ رابعٍ حول رحمته وتقولون: "وأنا أيضًا سأترك لِمَن لي عليه، محبَّةً بالله".

يضع القدّيسون كلَّ ما يُعلِّمنا إيّاه الإنجيل قيد التطبيق. لذلك، عندما نقرأ سيَر القدّيسين، نرى الإنجيل حيًّا. إذا أمكنكم، اقرؤوا السنكسار وسيَر القدّيسين يوميًّا. حتّى لو لم تفعلوا شيئًا آخر - أي إن لم تُصلّوا أو تسهروا أو تُصلّوا بالمسبحة أو تقرؤوا الكتاب المقدَّس، إن قرأتُم سيرة أحد القدّيسين، سترَون كيف سيبقى قلبكم "رقيقًا" طيلة اليوم. أمّا أفكاركم فستبقى "مرتبطةً" بالله وبمحبّة الله. لن يتَّسع منظوركم الروحيّ بمجمله فحسب، بل وأيضًا سيحلُّ محلَّ مشكلات الحياة سموٌّ في نفوسكم وقوّةٌ ستتلقّونها من خلال قراءة سيَر القدّيسين.

ويجب عليَّ التحدُّث عن الاشتراك في الأسرار المقدّسة. إذا أردنا عيش حياةٍ روحيّة، علينا الاشتراك في الأسرار المقدّسة ببركة الأب الروحيّ. هو سيَشرح لنا كيف نشترك في القُدسات وكيف نأخذ مسحة الزيت المقدَّس والماء المقدَّس وما إلى ذلك. علينا الحصول على بركة الأب الروحيّ ورأيه في هذا الخصوص. إذا فعلنا ذلك بأنفسنا، قد تصبح [الأسرار] سمًّا بدلًا من أن تكون دواءً خلاصيًّا.

وثمّة أمرٌ آخر هو ذكر الموت. إنَّ عصرنا هو الأصعب فيما يتعلَّق بالموت. يمكننا أن نخرج ونستمتع بلا اكتراث، ويبقى البعض خارج منازلهم حتّى الفجر، ويغفون خلف مقود سيّارتهم، فيقع حادثٌ مروريٌّ يُسحَقون على إثره. ثمَّ يلاحقنا الموت. ينقطع سلكٌ كهربائيٌّ ويسقط علينا ونموت. يُصادفنا مدمنٌ على المخدِّرات في الشارع، ويسحب سكّينًا ويقتلنا. نسمع يوميًّا بأمورٍ لم تكن مألوفةً قبلًا. يُحدق بنا خطرٌ جسيمٌ على نحوٍ دائمٍ، ومع ذلك، ليس لدينا ذكرٌ للموت. يجب أن نتذكّر الموت، ولكنْ ليس ذاك التذكّر الذي يكبِّلُنا ويُكدِّر قلبنا؛ هذا ليس ذكر الموت، بل الذكرى الشيطانيّة للموت.

يجب أن نتذكّر الموت كما علّمنا المسيح، ونفكّر في أنّنا من هذا العالم، من هذا العالم الزائل؛ يجب أن نفكّر كيف أنَّ المسيح سيدعونا في تلك اللحظة وتلك الساعة لنمثُلَ أمام كرسيّ دينونته، وكيف سنقِفُ أمامه. إذا حافظنا على ذكر الموت، فسنبقى دومًا حاملين في قلوبنا ما قاله النبيّ داود: "كنتُ أرى الربَّ أمامي في كلّ حين، أنّه عن يميني، لكي لا أتزعزع" (أعمال 2: 25). بتعبيرٍ آخر، عندما أُدركُ بشكلٍ دائمٍ أنّني في حضرة الله، فلن أرتكب خطيئة. هذه نصيحةٌ مهمّةٌ في حياتنا الروحيّة - أن يكون لدينا ذكر الموت، ولكن من دون أن يسحَق أرواحنا. إنّ المسيحيّ لا يخشى الموت، بل يراه على حقيقته؛ بعد قيامة المسيح لم نعُد نخاف الموت. هذا ما يجب أن نسعى إليه - ألّا نخشى الموت مطلقًا، بل أن نحبّه، كما يقول القديّس أنطونيوس.

فلنتكلّمْ على الصلاة غير المُنقطعة. إذا لم يكن القابس الكهربائي في المَقبِس، فلن يعمل التلفاز. هذا مستحيل. ينطبق الأمر عينه على تلفازنا الروحيّ - لا يمكن لحياتنا الروحيّة أن تنمو ما لم يوضع القابس في مَقبِس نعمة ربّنا الإلهيّة، وهي ما ندعوها بالمَقبِس السماويّ، حيث تكون الصلاة القابس. من دونها لا يحدث شيء.

وذكرتُ تفاصيل دقيقةً أخرى، مثل تقديم التنازلات في عائلاتنا وتفاعلاتنا اليوميّة بدلًا من ضرب الأرض بأرجلنا والقول: "لا! أنا المحقّ".

علينا أن نتنازل دومًا أمام الآخر. فعندما نتواضع أمام أخينا أو شريك حياتنا أو ولدنا، تعود إلينا نعمة الله، نعمة تواضعنا وتنازلاتنا.

أتذكّر شيخًا اسمه أغلايوس من دير كونستامونيتو. كان طاعنًا في السنّ - عمره ستّةٌ وثمانون عامًا. في أحد الأيّام، أحضرتُ إليه حطبًا لموقده. فجاء إليّ وقال لي:

- أيّها الشيخ أثناسيوس، دعني أقولُ لك شيئًا!

- كُلّي آذانٌ صاغية!

- لمَ نالَ موسى من الله مثل هذه النعمة العظيمة؟

- لأنّه كان عليه أن يُخرج الإسرائيليّين من مصر ويقودهم إلى إسرائيل.

- كلّا، بل لأنّه تواضعَ أمام الله. تذكّرْ أنّه عندما دعاه الله ليكون قائد الإسرائيليّين في خروجهم من مصر إلى أرض كنعان، قال له موسى: "يا ربُّ، لا تختر ني أنا، لأنّني ثقيل اللسان. اخترْ أخي هارون. يجب أن تختاره ليكون القائد في هذا الخروج لأنّه يملك موهبة الكلام". غير أنّ الله وبّخ موسى قائلًا: "لا. روحي يحلّ عليك".

وكرّر الشيخ قائلًا: "لأنّه أظهر تواضعًا".

يجب أن نكون حذرين عندما نعترف بأنَّ شخصًا آخر هو أهمُّ منَّا، وإلّا فقد ينتقل هذا الاستعلاء إلينا. نحن نُكرّم أنفسنا ونضع ذواتنا في منزلةٍ أعلى من الآخرين. تذكّروا دائمًا هذا الأمر. ولا تفترضوا أنَّنا نُحقّق شيئًا حين نُطالب بحقوقنا. ربّما نعذر أنفسنا ونهدّئ من روعِنا على الصعيد النفسيّ، لكنّنا نخسر روحيًّا. لذلك، فلتتحقّقْ إرادة زوجتكم أو ولدكم – طبعًا عندما لا تتعارض مع مشيئة الله. كُونوا متيقّظين أو ستُفسِدوا الأمور. مثلًا، تقول زوجةٌ لزوجها: "ضعِ الكوب هنا"، لكنَّ الزوج يأخذ الكوب ويضعه في مكانٍ آخر، فتقول له: "لا تضع الكوب هناك، بل ضعهُ حيث أخبرتك!". أو تقول له: "المزهريّة مليئةٌ بالقرنفل الأحمر، وليس فيها قرنفلٌ أبيض، لذا لا تشتري لي أيّ قرنفل أحمر!".

عظيم، وما الذي سيحدث بعد ذلك؟ إذا لم تشتر القرنفل الأحمر أو تضع ذلك الكوب في ذاك المكان، هل سيزول العالم؟ هل تستحقّ هذه الأمور البسيطة أن نُخرِّب علاقتنا بسببها؟ إذا أَهنَّا قريبَنا، هل سنكون قادرين على الصلاة بسلام؟ هل سنكون قادرين على قراءة الكتابات الروحيّة بأمان؟ أو على النموّ في الحياة الروحيّة؟ هل سيعمل الروح القدس فينا؟ لا. يستحيل ذلك.

يتبع…

نقلتها إلى العربيّة أسرة التراث الأرثوذكسيّ

Source: Hieromonk Athanasios of Simonopetra (n.d.). “The Lord Loves You Far More than You Love Yourself.” In *OrthoChristian*.